الفصل الثالث

مدارس مكة المكرمة حتى العهد السعودي

obeikandl.com

قامت المدرسة في المجتمعات الإسلامية؛ لتساهم مع المسجد والكتاب في تربية أبناء المجتمع الإسلامي. وقد كانت المدرسة في بداية عهدها في مستوى المدرسة الثانوية، أو الجامعة، في أيامنا هذه. ويربط المؤرخون بين نظام الملك ــ الوزير السلجوقي ــ ونشوء المدارس في الإسلام؛ مع أن بعض المدارس وجدت قبل نظام الملك؛ ولعل شهرة مدارسه راجعة لعوامل عدة، منها : أنه جعل التعليم مجانياً، وفرض للطلاب الأرزاق والأموال.

المدارس التي ظهرت في القرن السادس الهجري

مدرسة الأرسوفي : وإذا كانت المدارس الإسلامية قد بدأت في التطور في منتصف القرن الخامس الهجري؛ فإن ظهورها في مكة المكرمة لم يبدأ إلا في الربع الأخير من القرن السادس الهجري. ولعل مدرسة الأرسوفي أقدم مدرسة في مكة المكرمة، وموقعها بالقرب من باب العمرة. أما مؤسسها فهو عبد الله بن محمد الأرسوفي. ولا يعطي الفاسي تاريخاً محدداً لإنشائها، فهو يذكر في موضع أن ذلك قد تم عام ٥١٧هـ[١] ، بينما يشير في مكان آخر إلى أن إنشاءها كان في عام ٥٩١هـ.[٢] وممن درس بها ناصر بن عبد الله المصري المتوفى ٦٣٤هـ.[٣]

مدرسة الزنجيلي : أسس الأمير فخر الدين عثمان بن علي ــ المعروف بالزنجيلي ــ مدرسة في مكة المكرمة نسبت إليه، وعرفت بمدرسة الزنجيلي، وزنجيلة قرية من قرى دمشق. وقد كان الزنجيلي نائباً لصلاح

---

[١] – الفاسي : **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** ، الجزء الأول ، ٣٣٦.

[٢] –الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الأول ، ١٢٢.

[٣] – **المصدر السابق** ، الجزء السابع ، ٣١٧.

الدين الأيوبي في عدن. وقد وقفها على المذهب الحنفي عام ٥٧٩هـ[٤].

ويقول النعيمي عن الزنجيلي :

> ولهذا الأمير أوقاف وصدقات بمكة، واليمن، ودمشق. وإليه تنسب المدرسة، والرباط، المتقابلان بباب العمرة بمكة المشرفة، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق."[٥]

وممن درس بهذه المدرسة صديق بن يوسف بن قريش،[٦] وشهاب الدين أحمد بن محمد الصاغاني المتوفى عام ٨٢٥هـ.

مدرسة طاب الزمان : وفي سنة ٥٨٠هـ افتتحت طاب الزمان الحبشية مدرسة في الموضع المعروف بدار زبيدة، ولا يذكر الفاسي عن هذه المدرسة أية معلومات سوى أن مؤسستها هي عشيقة الخليفة العباسي المستضيء؛ بينما يذكر المؤرخ ناجي معروف أن طاب الزمان هي عتيقة الخليفة المستضيء، لا عشيقته[٧].

المدارس التي ظهرت في القرن السابع الهجري

وفي العقد الرابع من القرن السابع الهجري قامت في مكة ثلاث مدارس جديدة هي مدرسة النهاوندي، ومدرسة ابن أبي زكريا، ومدرسة ابن الحداد.

مدرسة النهاوندي : يذكر الفاسي أن مدرسة النهاوندي وجدت منذ أكثر من مائتي سنة. وإذا علمنا أنه توفي سنة ٨٣٢هـ ، وأنه ألف كتابه في أواخر

---

[٤] – **المصدر السابق** ، الجزء الثالث ، ١٦٩.

[٥] – النعيمي : **الدارس في تاريخ المدارس** ، الجزء الأول ، ٥٢٦.

[٦] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الخامس ،٣٩.

[٧] - ناجي معروف : **مدارس مكة** ، ١١.

حياته؛ أدركنا أنها أنشئت حوالي ٦٣٠هـ ، وكان موقعها بالموضع الذي يقال له الدريبة[٨].

مدرسة ابن أبي زكريا : وأما المدرسة الثانية فموقعها بالقرب من المدرسة المجاهدية؛ بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام. ويتحدث عنها الفاسيفي كتابه **شفاء الغرام** فيقول :

"ومدرسة أبي علي بن أبي زكريا قرب المدرسة المجاهدية، وتعرف بأبي طاهر المؤذن. وتاريخ وقفها خمس وثلاثون وستمائة على ما في حجرها، وواقفها فيه مترجم بالإمام الشهيد، وما عرفت حاله."[٩]

وإذا رجعنا إلى كتابه **العقد الثمين** نجد أن اسم المدرسة هو مدرسة أبي علي بن زكرى لا ابن أبي زكريا.[١٠]

مدرسة ابن الحداد : وأما المدرسة الثالثة فمؤسسها أبو المنصور عبد الحق بن عبد الرحمن المهدوي، المعروف بابن الحداد. وقد أوقف مدرسته على طلاب المذهب المالكي، وكان ذلك في ربيع الثاني سنة ٦٣٨هـ. وأصبحت تعرف في القرن التاسع الهجري بمدرسة الأشراف الأدارسة؛ لاستيلائهم عليها. وكانت تقع بالقرب من مدرسة الأرسوفي.[١١]

المدرسة الشرابية : وأما المدرسة الشرابية فبناها الأمير العباسي شرف الدين الشرابي عام ٦٤١هـ. وكانت تقع على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام.[١٢] وهناك إشارة إلى أنها استمرت في أداء رسالتها

---

[٨] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الثالث ، ١١٨.

[٩] – الفاسي : **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** ، الجزء الأول ،٣٣٠ .

[١٠] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الأول ، ١١٨.

[١١] – **المصدر السابق** ،الجزء الخامس ، ٣٣٥.

[١٢] – ناجي معروف : **مدارس مكة** ، ٣٣.

حتى أواخر القرن الحادي عشر للهجرة. ففي هذه الفترة كان متولي شـــؤون الأوقاف في مكة المكرمة الشيخ محمد بن ســـليمان. وقـــد أبـــدى اهتمامـــا بالأوقاف، وأعاد تنظيمها. وفي ١٠٨٤هـــ أخرج الشيخ محمد بـــن ســـليمان أمرا قرأه القاضي يتضمن إخراج من كان في الخـــلاوي الموقوفـــة، ومنـــها خلاوي الشرابية.[١٣]كما أنه عزل أحمد الحكيم عن التدريس بها، وعين بديـــلا عنه مصطفى أفندي الدياربكري، وقد اتخذ هذا المدرسة مسكنا له.

المدرسة الأرغونية

مؤسسها الأمير أرغون الدوادار أحد مماليك المنصور قلاوون، وقـــد ولاه نيابة حلب. وكان له ميل للمذهب الحنفي، فأقبل على دراسته، ومهر فيه؛ إلـــى أن صار يعد من أهل الإفتاء. وقد دعاه ميله الشديد إلى هـــذا المذهـــب إلـــى تقرير دروس في الحنفية بدار العجلة بمكة المكرمة. وأول مـــن درس بـــهذه المدرسة يوسف بن الحسن الحنفي المكي، فقد درس بها عدة سنين. وفي أيـــام الفاسي كانت المدرسة تحت إشراف أولاد راجح بن أبي نمي شـــريف مكـــة المكرمة في ذلك الحين[١٤]. ولا يعرف بالضبط إن كان الأمير أرغـــون هـــو الذي بنى المدرسة، أم أنها كانت قد بنيت من قبل. ويعطي الفاسي روايتيـــن متضاربتين، فعند حديثه عن المدارس في كتابه **شفاء الغرام بأخبـــار البلـــد الحرام** يقول :

"ومنها بالجانب الشامي مدرسة بدار العجلة؛ وهي التـــي عـــن يمين الخارج من باب المسجد المعروف بـــاب العـــجلة. ولـــم

---

[١٣] – السنجاري: **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم** ، الجزء الثاني ، ٢٨٤.

[١٤] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الثالث ، ١٦٩ ، ٢٨٣.

أدر من وقفها، ولا متى وقفت. ثم عمل فيها الأمير أرغون النائب درسا للحنفية قبيل العشرين وسبعمائة، أو بعدها بيسير."[١٥]

والذي يستدل من هذا القول أن الأمير أرغون لم يبن المدرسة. بينما يذكر الفاسي نفسه ذلك صراحة في موضع آخر عندما يقول :

"مدرسة بدار العجلة القديمة، على يسار الداخل إلى المسجد الحرام. عملها الأمير أرغون النائب الناصري للخليفة قبل العشرين وسبعمائة، أو بعدها بقليل."[١٦]

وقد توقف التدريس بهذه المدرسة، والمدرسة الزنجيلية في الربع الأول من القرن التاسع الهجري؛ وذلك لانتقال المدرس الذي كان يدرس في كل منهما إلى الحرم الشريف.[١٧]

المدارس اليمانية

المدرسة المنصورية : كان لحكام بني رسول في اليمن صلات قوية بمكة المكرمة، وقد تركوا فيها مآثر عديدة، منها ثلاث مدارس؛ أقدمها المدرسة المنصورية ومؤسسها السلطان عمر بن رسول الملقب بالملك المنصور، وقد حكم بين عامي ٦٢٦هـ و ٦٤٧هـ ، وكان محبا للعلم والعلماء. وقد بنى بالإضافة إلى مدرسته في مكة المكرمة ست مدارس في اليمن؛ ثلاث منها في زبيد. ورتب في كل مدرسة بناها مدرسا، ومعيدا، وإماما، ومؤذنا، ومعلما، وأيتاما يتعلمون القرآن.[١٨]وكان تاريخ وقف المدرسة المنصورية

---

[١٥] – الفاسي : **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** ، الجزء الأول ٣٢٨.

[١٦] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الأول ، ١١٧.

[١٧] – السخاوي : **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، الجزء الثاني،١٧٩.

[١٨] – الخزرجي : **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية** ، الجزء الأول ، ٨٤.

عام ٦٤١هـ ، وأما موقعها فبالقرب من باب العمرة؛ بين المدرسة الزنجيلية ومدرسة طاب الزمان. وأما الموضوعات التي كانت تدرس بها فهي : الحديث، وفقه الإمام الشافعي. وممن ولي تدريس الحديث بها القاضي علي بن أحمد بن عبد العزيز العقيلي (٧٢٤هـ ـ ٧٩٨هـ) ،وابنه القاضي عبد العزيز بن علي العقيلي (٧٧٨هـ ـ ٨٢٥هـ). ومن الذين عملوا بالإعادة فيها علي بن أحمد بن سلامة (٧٤٦هـ ـ ٨٢٨هـ). وعلي هذا من مواليد مكة المكرمة، ورحل في سبيل العلم إلى بغداد، والشام، ومصر، وأذن له أكثر من شيخ في الإفتاء والتدريس. بيد أنه لم يكثر من الإفتاء؛ احتراما لقضاة مكة المكرمة.[١٩]

وبحلول منتصف القرن العاشر الهجري زالت معالم هذه المدرسة؛ ففي معرض حديثه عن زيارة سليمان باشا الوزير العثماني لمكة المكرمة عام ٩٤٥هـ ، يذكر قطب الدين النهروالي أنه بعد الطواف والسعي، نزل قرب باب العمرة في الموضع الذي كان مدرسة للملك المنصور.[٢٠]

المدرسة المجاهدية : بنى السلطان علي بن داود الملقب بالملك المجاهد مدرسة بمكة المكرمة عام ٧٤٠هـ عرفت بالمدرسة المجاهدية. وفي معرض حديثه عن منجزات الملك المجاهد يقول الخزرجي :

> "وله من الآثار الدينية مدرسة في مكة المشرفة، ملاصقة للحرم الشريف، يصلي المصلي فيها، وهو يشاهد البيت الحرام. رتب فيها إماما، ومؤذنا، وقيما، ومعلما، وأيتاما، ومدرسا، وطلابا."[٢١]

---

[١٩] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الخامس، ٤٥٣– ٤٥٥،الجزء السادس١٣٣، ١٤٠.

[٢٠] – النهروالي : **البرق اليماني في الفتح العثماني** ، ٨٨.

[٢١] – الخزرجي : **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية** ، الجزء الثاني ، ١٢٦.

وقد جعل للمدرسة أوقافا من أملاكه الخاصة. وجعل الأوقاف في ثلاثة مواضع من وادي زبيد؛ زيادة في الحرص على توفير الأموال سنويا للمدرسة. فكان جزء من الأوقاف في أعلى وادي زبيد، وجزء في أسفله، والجزء الثالث في أوسطه؛ حتى إذا لم تغل الأوقاف في جهة معينة كانت غلال الجهة الأخرى موردا للمدرسة، تستعين به على تسيير أمورها في ذلك العام.[٢٢]

ودرس بها عدد من العلماء، منهم القاضي جمال الدين محمد بن ظهيرة المخزومي المتوفى ٨١٧هـ ، وقد ولي التدريس بها سبع عشرة سنة.[٢٣] وفي أواخر أيامه تنازل عن التدريس فيها لولده أحمد بن محمد بن ظهيرة قاضي مكة المكرمة، وكان هذا واسع الإطلاع؛ حفظ الألفية في النحو، والمنهاج للنووي. وحضر دروسا في الأصول، والمعاني، والبيان، والمنطق، عند الشيخ حسام الدين الأبيوردي، كما حضر دروسا في التفسير، والأصول، والعربية، عند الشيخ الوانوغي. وأخذ عن الشيخ بدر الدين الزمزمي الفرائض، والحساب، والفلك. وقد درس المسجد الحرام، وعندما مرض والده حل محله في التدريس بالمدرستين البنجالية، والمجاهدية،[٢٤] فدرس بالمدرسة المجاهدية عشرة أعوام (٨١٧هـ ـ ٨٢٧هـ). كما درس بها أيضا القاضي أحمد بن محمد العقيلي الملقب بمحب الدين النويري. وكان قد بدأ بالتدريس في المسجد الحرام ، ثم أخذ يدرس درس بشير الجمدار منذ عام

---

[٢٢] – **المصدر السابق**، الجزء الثاني ، ٦٨.

[٢٣] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الثاني ، ٥٨.

[٢٤] – **المصدر السابق** ، الجزء الثالث ، ١٣٩ - ١٤٢.

٧٨٩هـ. وأضيف له بعد ذلك التدريس بالمدرسة المجاهدية واستمر في ذلك إلى أن توفي عام ٧٩٩هـ.[٢٥]

ومن بين الذين عملوا معيدين في المدرسة المجاهدية أحمد بن إبراهيم بن محمد الشافعي إمام المسجد الحرام.[٢٦] كما عين علي بن سالم الزبيدي معيداً في المدرسة المجاهدية ،ولكنه رفض ذلك المنصب؛ لأنه كان يطمح في منصب أعلى.[٢٧]ويخبر الفاسي أن عبد اللطيف ــ شقيق علي ــ عين معيداً بها، ولكنه لم يباشر عمله؛ نظراً لوجوده في مصر.[٢٨]

لا يعرف على وجه التحديد الفترة التي توقفت فيها هذه المدرسة عن أداء رسالتها. ومن المرجح أن ذلك حدث في أوائل القرن العاشر الهجري، أو قبل ذلك التاريخ. فعند ذكر أحداث عام ٩٣٢هـ يقول النهروالي عن المدرسة :

" كان يقام بها درس بالقديم، ثم أخذها أحمد العيني، أوقفها على قراءة القرآن، ثم خربت. وهي الآن خراب، إلى أن يقيض الله من يعمرها."[٢٩]

المدرسة الأفضلية : وأسس حكام بني رسول مدرسة ثالثة في مكة المكرمة هي المدرسة الأفضلية. وقد أمر بإنشائها الملك الأفضل ابن الملك المجاهد. وابتدأ التدريس بها عام ٧٧٠هـ على المذهب الشافعي. وكانت تقع في الجانب الشرقي من المسجد الحرام، مقابل باب الكعبة. ورتب فيها الأفضل مدرساً، ومعيداً، وعشرة من الطلاب، وإماماً، ومؤذناً، وقيماً، ومعلماً،

---

[٢٥] – **المصدر السابق**، الجزء الثالث ، ١٢٤ - ١٢٥.

[٢٦] – **المصدر السابق**، الجزء الثالث ، ٩ - ١٠.

[٢٧] - **المصدر السابق** ، الجزء السادس ، ١٣٥.

[٢٨] – **المصدر السابق** ، الجزء الخامس ، ٤٨٦.

[٢٩] النهروالي : **البرق اليماني في الفتح العثماني** ، ٤٧.

وأيتاما، يتعلمون القرآن الكريم. وأوقف عليها وقفا جيـــدا.[٣٠] وكـــان مبنـــى المدرسة في الأصل دارا يملكها قطب الدين بن المكرم المصري.[٣١] وأول من ولي التدريس فيها محمد بن أحمد الهاشمي العقيلي (هـ٧٢٢ ــ ٧٨٦هـــــ) قاضي مكة المكرمة وخطيبها[٣٢]. كما درس بها أيضا حفيـــده القـــاضي عـــز الدين،[٣٣] وعبد الرحمن بن الجمال المصري.

وهناك مدرسة أخرى كادت أن تفتح عام ٨٠٣ هـــ؛ فقد زار الفيروزأبـــاد الشيرازي أحد المقربين من الملك الأشرف ابن الملك الأفضل مكة المكرمـــة عام ٨٠٢هـــ. وفي السنة التالية جعل داره التي أنشأها على الصفـــا مدرســـة للملك صاحب اليمن. وقرر بها طلابا، وثلاثة مدرسين : في الحديث، وفـــي فقه مالك، وفقه الشافعي. وزار المدينة المنورة، وقرر بها مثل ما قرره بمكـــة المكرمة. ثم عاد إلى اليمن، ومات الأشرف قبل وصوله إليها، فرجـــع عمـــا كان قد قرره.[٣٤]

ويبدو أن مدارس بني رسول أخذت تخضع لإدارة واحدة. فقد ذكر الفاســـي أن القاضي محمد بن أحمد العقيلي ــ أحد مدرســـي المدرســـة الأفضليـــة ــ أسندت إليه مهمة الإشراف على المدارس اليمانية الثلاث. وبعد عزلـــه عـــام ٧٨٦هـــ، أصبح عبد اللطيف بن سالم الزبيدي ناظرا عليها ، وبقي يشغل هذا المنصب أربعة عشر عاما. وكان خلال السنوات الأربع الأولى يشرف عليـــها إشرافا مباشرا؛ لأنه كان مقيما في مكة المكرمة. أما فـــي الســـنوات العشـــر

---

[٣٠] –علي الخزرجي : **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية** ، الجزء الثاني ، ١٥٩.

[٣١] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الثاني ، ٣٢٥.

[٣٢] – **المصدر السابق** ، الجزء الأول ، ١١٧ – ١١٨، ٣٠١ - ٣٠٢.

[٣٣] – **المصدر السابق**، الجزء الأول ، ٢٧٢.

[٣٤] – **المصدر السابق** ، الجزء الثاني ، ٣٩٩.

الأخيرة (٧٩٠هـ ـ ٨٠٠هـ) فقد كانت زبيد مقرا له، وكان يديرها بواسطة أحد أصهاره[٣٥].

المدارس الهندية

المدرسة الغياثية : أظهر بعض الحكام المسلمين الهنود عناية بالتعليم في مكة المكرمة، وأسسوا بها عددا من المدارس، منها **المدرسة الغياثية**، أو البنغالية؛ ومؤسسها الملك منصور غياث الدين بن المظفر أعظم شاه، صاحب بلاد البنجال. وقد بدئ في بنائها في رمضان عام ٨١٣ هـ ، وتم البناء في جمادى الأولى عام ٨١٤هـ[٣٦]. وقد كلف موضع المدرسة وأوقافها أكثر من اثني عشر ألف مثقال ذهبا*. وكان المشرف على أوقاف المدرسة، وعمارتها ياقوت الحبشي خادم السلطان.

كانت أوقافها تشمل حديقتين، وسقية ماء. فأما الحديقتان فتعرف إحداهما بسلمة، والأخرى بالحل، وهما بالضيعة المعروفة بالركابي؛ بواد قريب من مكة المشرفة[٣٧]. وكانت تقسم غلال الأوقاف على الشكل التالي :

- يأخذ المدرسون، وعددهم أربعة، خمس تلك الغلال.
- يأخذ الطلاب ثلاثة أخماس الغلال.
- يخصص (١) من (١٥) من الدخل لمصاريف المدرسة من الزيت، والماء، وما إلى ذلك.

---

[٣٥] – **المصدر السابق** ، الجزء الأول ، ٣٠١.

[٣٦] – **المصدر السابق** ، الجزء الأول ، ١١٧.

* – المثقال من الذهب = ١,٤٣ درهما، والدرهم = ٣,١٢ غراما؛ أي أن المثقال= ٤,٤٦ غراما.

[٣٧] – الفاسي : **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** ، الجزء الأول ، ٣٢٩.

❖ ويخصص (٢) من (١٥) من الدخل لساكني المدرسة؛ وعددهم عشرة رجال[٣٨]. وكانت تعلو المدرسة بعض الخلاوي التي خصصت للفقراء. وقد تم وقف ما سبق ذكره في التاسع من محرم سنة ٨١٤هـ. وفي النصف الثاني من شهر ذي الحجة، أضيف إلى تلك الأوقاف دار مجاورة للمدرسة كانت تعرف بدار أم هانئ.

وبدأ التدريس بها على المذاهب الأربعة يوم السبت السابع من جمادى الثانية سنة ٨١٤هـ. وأما المدرسون المعينون بها فهم قضاة مكة الأربعة في ذلك الوقت. ويظهر توزيع طلابها في الجدول التالي.

الجدول رقم (١)

عدد الطلاب في المدرسة الغياثية

المذهب	عدد الطلاب
الشافعي	٢٠
الحنفي	٢٠
المالكي	١٠
الحنبلي	١٠

وخصص الإيوان الشرقي لتدريس المذهب الشافعي، والمذهب الحنفي، وأما الإيوان الغربي فخصص لتدريس المذهبين : المالكي والحنبلي. وكان جدول الحصص الأسبوعي على النحو الذي يظهر في الجدول التالي.

---

[٣٨] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الثالث ، ٣٢١.

الجدول رقم (٢)

الحصص الأسبوعية في المدرسة الغياثية

المذهب	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس
الشافعي	×		×			
الحنفي		×			×	×
المالكي	×	×	×			
الحنبلي					×	×

وكان تدريس الفقه الشافعي والفقه الحنفي يتم في الضحى، أمـــا تدريـــس الفقه المالكي، والفقه الحنبلي فيتم بين صلاتي الظهر، والعصر.[٣٩] وأول مـــن ولي بها تدريس الفقه المالكي تقي الدين الفاسي. ويحدثنا عن نفسه في كتابـــه **العقد الثمين** فيقول بأنه في سنة أربـــع عشـــرة وثمانمائـــة درس للمالكيـــة بالمدرسة السلطانية الغياثية البنجالية التي بالجـــانب اليمـــاني مـــن المســـجد الحرام.[٤٠]

وفي سنة ٨١٧هـ عزل من منصب القضاء، ومن التدريـــس بالمدرســـة، وحل محله قريبه الشريف أبو حامد ابن الشريف عبد الرحمن الفاسي. ودرس بها الفقه الشافعي القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظـــهيرة، ودرس الفقه الحنفي أحمد بن محمد الصاغاني.[٤١]

---

[٣٩] – الفاسي : **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، الجزء الأول ، ٣٢٩.

[٤٠] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الأول ، ٣٩٩.

[٤١] – **المصدر السابق** ، الجزء الثاني ، ٥٨. الجزء الثالث ، ١٦٨.

المدرسة الكنبائية : وكان حكام الدولة الكجراتية غيورين على نشر الإسلام، كما أظهروا اهتماماً بمكة المكرمة. والدولة الكجراتية دولة إسلامية قامت في كجرات بغرب الهند سنة ٨١٠هـ الموافق ١٤٠٧م وقد قضى عليها المغول عام ٩٦٥هـ الموافق ١٥٧٢م وأنشأ أحد سلاطينها وهو أحمد شاه (٨١٣هـ ــ ٨٤٥هـ) مدرسة في مكة المكرمة عرفت باسم المدرسة الكنبائية؛ نسبة إلى حاضرة إحدى ولايات كجرات. وممن درس بها المؤرخ الشهير قطب الدين النهروالي، ووالده.[٤٢]

وكانت هذه المدرسة تدرس الفقه الحنفي، وتقع بالجهة الجنوبية من المسجد الحرام. وأزيلت في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، وبنيت في موضعها المدرسة السليمانية. وكان لها وقف في كجرات، ترسل غلاله إلى مكة المكرمة؛ لينفق منه على المدرسين والطلاب، وعلى من يقيم بالرباط.[٤٣]

المدارس في عهد المماليك

المدرسة الباسطية : تقع المدرسة الباسطية في الجهة الشمالية من المسجد الحرام، عن يسار الداخل من باب العجلة. ومؤسسها هو خليل بن إبراهيم الملقب بالزيني عبد الباسط[٤٤]، وكان ناظر الجيش في أيام الملك الأشرف برسباي (٨٢٥ ــ ٨٤١هـ).

وكانت المدرسة حتى أواخر القرن العاشر الهجري تحت إشراف النجاريين، أئمة المقام الحنفي. وكانت لها أوقاف بمصر؛ ولكنها اندثرت ، وكانت المدرسة ما تزال قائمة حتى النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري؛

---

[٤٢] - النهروالي ، **البرق اليماني في الفتح العثماني**، انظر مقدمة الناشر ، ١٢.

[٤٣] – عبد المنعم النمر : **تاريخ الإسلام في الهند** ، ١٥٩.

[٤٤] – النهروالي : **كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**،١٨٦.

إذ يذكرها السنجاري[٤٥] عندما سمى أسماء المدارس الموجودة في زمانه.

مدرسة قايتباي : أمر السلطان المملوكي قايتباي وكيله شمس الدين محمد بن عمر، الشهير بابن الزمن، أن يبني مدرسة في مكة المكرمة تدرس فيها المذاهب الأربعة. فاشترى ابن الزمن داراً من الشريفة شمسية، من أشراف بني حسن، ثم هدم الدار، ورباط السدرة، ورباط المراغي؛ كي يبني مكانها مدرسة قايتباي.

شرع العمل بها عام ٨٨٢هـ ، وكان الفراغ من بنائها عام ٨٨٤هـ . وكانت المدرسة جميلة؛ إذ جعلها من الرخام الملون، أما سقفها فكان مذهباً، وكانت تضم اثنتين وسبعين خلوة، ومجمعاً مشرفاً على المسجد الحرام، كما كانت تضم مكتبة، ومئذنة.[٤٦] وقرر السلطان أن يكون بالمدرسة أربعة مدرسين، كل يدرس أحد المذاهب، كما قرر أن يكون بالمدرسة أربعون طالباً. وقد أرسل للمدرسة مجموعة كبيرة من الكتب. ويذكر قطب الدين النهروالي أن المستعيرين أتلفوا الكثير من تلك الكتب، ولم يبق منها سوى (٣٠٠) مجلد، وقد عمل بنفسه على تجليدها وصيانتها.[٤٧] وقد أوقف عليها مؤسسها عدة دور بمكة المكرمة، وجعل أجرها وقفاً على المدرسة. وما كاد ينقضي قرن على تأسيسها حتى تضعضعت أمورها؛ نتيجة لسوء إدارة القائمين على الأوقاف؛ إذ يبدو أنهم أخذوا يحولونها لمصالحهم الشخصية.[٤٨]

كانت هذه المدرسة تستعمل كدار ضيافة، ينزل بها أمراء الحج المصري، وكان من المعتاد أن يطوف أمير الحج المصري في الليل، ويعود إلى

---

[٤٥] – السنجاري : **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم** ، الجزء الثاني،٢٦٠.

[٤٦] – **المصدر السابق**، الجزء الثاني ،١٣-١٤.

[٤٧] – النهروالي : **كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، ١٩٨.

[٤٨] – **المصدر السابق**، ١٩٨.

الزاهر، ثم يدخل في الصباح في موكب، ويستقبله أمير مكة المكرمة، والقضاة، والأعيان، ويوصلونه إلى محل سكنه المعتاد وهو مدرسة الأشرف قايتباي.[٤٩] كما كان ينزل بها كبار الوافدين إلى مكة المكرمة. فقد نزل بها مصطفى باشا بعد عزله عن ولاية اليمن ٩٦٧هـ، والوزير العثماني سنان باشا عندما مر بمكة المكرمة في طريقه لإعادة السيطرة على اليمن.[٥٠]

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري أعيد تنظيم أمور أوقاف هذه المدرسة. ففي عام ١٠٨٠هـ عين الشيخ محمد بن سليمان المغربي مشرفاً على شؤون الأوقاف بمكة المكرمة. ومحمد بن سليمان من خيرة علماء المغرب، أخذ عن علمائها، ثم رحل إلى مصر، وأخذ عن علمائها اللغة، والحساب، والفلك. ثم رحل إلى مكة المكرمة، والمدينة المنورة، فآسيا الصغرى. وبعد ذلك عاد إلى مكة المكرمة وعين مشرفاً على الأوقاف، وكان متنفذاً؛ لدرجة أن شريف مكة الشريف بركات كان يتردد على داره يومياً؛ بل وربما زاره أكثر من مرة في اليوم الواحد.[٥١] وفي عام ١٠٨٤هـ أخرج من كان يسكن في خلاوي مدرسة قايتباي، وأمر أن تكرى أوقاف المدرسة، فارتفع دخل المدرسة السنوي من ٦٠٠ قرش إلى ٤٦٠٠ قرش. وعين في المدرسة أربعة مدرسين؛ بعد أن استبدل تدريس المذهب الحنبلي بتدريس الحديث. ومن المدرسين الذين عينهم : محمد الغزالي الغداسي مدرساً للفقه المالكي، وعبد الله العباس مدرساً للحديث.

---

[٤٩] – النهروالي : **البرق اليماني في الفتح العثماني**، ٩٨.

[٥٠] – **المصدر السابق**، ١٢٤ ، ١٥٧ ، ١٤٥ ، ٤٤٩.

[٥١] – العصامي : **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، الجزء الرابع، ٥٤٣ وكذلك ، السنجاري: **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم**، الجزء الثاني،٢٨٥.

المدارس في عهد الخلافة العثمانية

لقد أدت الفتوحات العثمانية، وخضوع مكة المكرمة لهم، إلى كثرة الوافدين إليها. وقد دب النشاط في الحركة العلمية؛ نتيجة لازدياد عدد العلماء الذين طاب لهم مجاورة بيت الله الحرام.[٥٢]

أما العامل الثاني الذي ساهم في تنشيط العلم فهو بناء عدد من المدارس؛ وأشهرها مدارس السلطان سليمان (٩٢٦هـ ـ ٩٧٤هـ) فقد أمر بإنشاء أربع مدارس؛ تدرس كل مدرسة أحد المذاهب الأربعة.

تقع المدارس في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام، وقد وضع حجر الأساس قاضي مكة المكرمة أحمد الشانجي، وكان ذلك عام ٩٧٢هـ. وقد أشرف على بنائها أمير جدة قاسم بك السرواني.وقد أوقف السلطان للمدارس أوقافا بالشام، وحدد الرواتب التي تدفع للطلاب، وللمدرسين، على النحو التالي :

- عين لكل مدرسة خمسين عثمانيا*يوميا.
- يتقاضى المعيد أربعة عثامنة يوميا.
- يتقاضى الطالب في اليوم عثمانين.
- يتقاضى الفراش والبواب عثمانيا واحدا في اليوم.[٥٣]

المدرسة المالكية السليمانية : كانت أرقى المدارس الأربع. وعين القاضي حسين الحسيني مدرسا لها، وقد جعل السلطان مدرسته بمائة عثماني.[٥٤]

---

[٥٢] – أحمد السباعي : **تاريخ مكة** ، الجزء الثاني ، ١٠٦.

* – لعله يقصد قرشا عثمانيا. فالدينار العثماني ذهبا يتكون من ١٠٠ قرش، وقيمته تساوي ــ هذه الأيام ١,٧ جنيه إسترليني. ارجع إلى انستاس الكرملي ، **النقود العربية.**

[٥٣] – النهروالي : **كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام** ،٢٩٥.

[٥٤] – **المصدر السابق**، ٢٩٥.

المدرسة الحنفية : عين قطب الدين النهروالي مدرساً فيها عام ٩٧٥هـ. ويثني قطب الدين النهروالي ثناءاً عطراً على قاضي العسكر بالأناضول، فيقول : "فصارت مدرستي بهمته بستين عثمانياً."[٥٥]

السليمانية الشافعية : درس بها علماء الشافعية، وكانت حصتها بخمسين عثمانياً.

دار الحديث : كان من المتوقع أن يدرس بها فقه الإمام أحمد بن حنبل ، ولكنها أصبحت تدرس الحديث الشريف. ويذكر علي الطبري أن السبب في ذلك هو انه لم يكن زمن بنائها شخص ضليع في تدريس الفقه الحنبلي؛ فجعلت داراً للحديث، وأصبح يقرأ بها الصحاح الست.[٥٦]

المدرسة المرادية : بنى السلطان مراد الثالث (٩٨٢هـ ـ ١٠٠٣هـ) مدرسة بمكة المكرمة عرفت بالمدرسة المرادية. وعين للمدرسة مدرساً وعشرة طلاب. وكان يدفع للمدرس راتباً سنوياً قدره ١٥٠ ديناراً ذهباً جديداً، وللطالب عشرة دنانير ذهباً سنوياً.[٥٧]وممن درسوا بها الشيخ حمد بن محمد، وقد عزله الشيخ محمد بن سليمان آنف الذكر عن التدريس عام ١٠٨٣هـ ؛ لأنه صدر عنه كلام في حق الشيخ محمد بن سليمان.[٥٨]

ويذكر علي الطبري عدداً آخر من المدارس التي ظهرت في مكة المكرمة في العهد العثماني، وكانت ما تزال قائمة حتى أوائل القرن الثاني عشر الهجري، ومن بين تلك المدارس[٥٩]:

---

[٥٥]- **المصدر السابق**، ٢٩٦.

[٥٦]- علي الطبري : **الأرج المسكي في التاريخ المكي**،٣٣.

[٥٧] - عبد الملك العصامي: **سمط النجوم العوالي** ، الجزء الرابع،١٠٠.

[٥٨] - السنجاري : **منائح الكرم**، الجزء الثاني،٢٩٧.

[٥٩] - علي الطبري : **الأرج المسكي في التاريخ المكي** ، ٣٣ - ٣٤.

مدرسة الوزير محمد باشا : تقع في سويقة، وكانت في الأصل بيمارستانا، ثم حولت إلى مدرسة.

مدرسة السلطان محمود : تقع في سوق الليل.

المدرسة الداودية : تقع بالقرب من باب العمرة.

المدرسة الرشدية : افتتحت قبيل إعلان الحركة الدستورية في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وكانت لغة التدريس بها اللغة التركية. ومن الموضوعات التي كانت تدرس بها : الرياضيات، والتاريخ. وكان جميع المدرسين في البداية، من الأتراك، ثم عين فيها بعض المدرسين من مكة المكرمة. ونظراً لأن التركية كانت لغة التدريس؛ فإنه لم ينضم إلى هذه المدرسة إلا أبناء الموظفين الأتراك وأصدقائهم.[٦٠]

وعندما عاد الدستوريون إلى الحكم عام ١٣٢٧هـ الموافق ١٩٠٨م نشطوا في إنشاء المدارس في الدولة العثمانية؛ لتحقيق أهدافهم في التتريك. ففتحت بمكة المكرمة مدرسة أمام باب الصفا، ثم نقلت إلى أجياد؛ بعد أن شيد مبنى خاص بها.[٦١]

مدارس الأشراف

في القرن الثامن الهجري أنشأ الأشراف مدرستين هما مدرسة الشريف عجلان[٦٢] التي أنشئت عام ٧٧٢هـ ، ومدرسة الشريف جار الله بن حمزة بن راجح بن أبي نمي. وكانت هذه المدرسة بدار العجلة، وأنشئت عام ٧٨٩هـ، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام. ويذكر الفاسي أن صاحبها فتح لها في جدار

---

[٦٠] – أحمد السباعي ، **تاريخ مكة** ، الجزء الثاني، ٢٠١ ــ ٢٠٢.

[٦١] – **المصدر السابق**،٣٠٢.

[٦٢] – ناجي معروف : **مدارس مكة**، ١٦.

المسجد الحرام بابا، وستة شبابيك.[٦٣]

مدارس الشريف الحسين بن علي : لقد عني الشريف الحسين بن علي بإنشاء المدارس، كما حرص على تشجيع التلاميذ، فقد كان يستقبلهم في الأعياد الرسمية، ويستمع إلى خطبهم. وأولى المدارس التي أنشأها **المدرسة الخيرية التحضيرية الهاشمية**، وكان بها قسم لتحفيظ القرآن الكريم. وقد بنيت أمام باب السلام، وطلب الشريف حسين من الشيخ محمد خياط أن ينتقل بتلاميذه إليها[٦٤]. ويصفها السباعي بأنها أول مدرسة حكومية عربية. ثم بنى بعد ذلك مدرستين أوليتين، إحداهما في المعلاة، والثانية في حارة الباب.وتذكر صحيفة الفلاح أنه كان بمكة المكرمة في عهد الشريف حسين خمس مدارس تحضيرية يدرس فيها القرآن الكريم، وتجويده، والتوحيد، والفقه، والخط، والإنشاء، والحساب، وكانت مدة الدراسة بها سنتين. وبعد إنشاء المدارس التحضيرية قام الشريف بافتتاح **المدرسة الراقية** في جبل هندي، وأتبعها بافتتاح **المدرسة العالية** التي هي بمثابة مدرسة ثانوية. ويصف رئيس التحرير صحيفة الفلاح التي كانت تصدر في مكة المكرمة في عهد الحسين المدرسة الراقية بعد أن قام بزيارتها فيقول[٦٥] :

> "هذه الروضة الزاهرة هي في ربوة من أجمل ربى البطحاء وألطفها، ذات بناء واسع متقن، ومستعد للتوسع، وتضم أربعة صفوف، بها ١٥٠ طالباً. ومنهاجها يتكون من العلوم

---

[٦٣] – الفاسي : **العقد الثمين**، الجزء الثالث، ٤٠٥.

[٦٤] نقلا عن السيد اسحاق عزوز الذي قابل المؤلف أكثر من مرة.

[٦٥] – صحيفة **الفلاح** ، ٢٨ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ ، ٦ فبراير ١٩٢١م.

الدينيـــة،وعلـــوم اللغـــة العربيـــة، والاجتماعيـــات، والحســـاب، والهندسة."[٦٦]

ويرى حسين نصيف أن المدارس الهاشمية التي أنشأها الشريف حسين لـــم تكن راقية في مستواها الأكاديمي؛ فهي على أحسن حال تجعل التلميذ ذا قدرة على المطالعة، والفهم؛ ويعطي عدة أسباب لذلك، منها تأخير دفـــع رواتـــب المدرسين.[٦٧] وتصفها صحيفة **أم القرى** بأنها كانت بالكتاتيب أشبه، وأنـــها لا تسمن ولا تغني من جوع.[٦٨]

وقد ظهرت في مكة المكرمة في أواخر القـــرن الثـــالث عشـــر الـــهجري وأوائـــل القرن الرابع عشر الهجري عدة مدارس، استمرت في أداء رســـالتها حتى بعد العهد السعودي، وما زال بعضـــها قائمـــاً، كالمدرســـة الصولتيـــة، والفخرية العثمانية، والفلاح. وهذه المدارس ستناقش في الفصل السابع.

نظرة تقويمية للمدارس

هناك عدة ملاحظات يجدر بنا أن نشير إليها، وهي :

١) **العناية بالعلوم الشرعية** : لقد عنيت المدارس التي نشـــأت فـــي مكـــة المكرمة عناية تامة بالعلوم الشرعية؛ فقد كان الشـــغل الشـــاغل للمـــدارس تدريس تلك العلوم، وكانت تدرس الفقه على واحد، أو أكثر، من المذاهـــب الأربعة. فالمدرسة الأرغونية كانت تدرس فقه المذهب الحنفي، والمدرســـة الغياثية تدرس فقه المذاهب الأربعة، ومدارس بني رســـول كـــانت تـــدرس الحديث الشريف، وفقه المذهب الشـــافعي، والمـــدارس الســـليمانية تـــدرس الحديث الشريف، والفقه المالكي، والفقه الشافعي، والفقه الحنفي. وأدى هـــذا

---

[٦٦] – صحيفة **الفلاح**، ٧ جمادى الأول ١٣٣٩هـ ، ١٦ يناير ١٩٢١م .

[٦٧] – حسين نصيف : **ماضي الحجاز وحاضره** ، الجزء الأول، ١١٢.

[٦٨] – صحيفة **أم القرى** ، ربيع أول ١٣٤٨هـ ، ١٩ أغسطس ١٩٢٩م، ١.

التركيز على الأمور الدينية إلى عدم العناية بالعلوم الأخرى؛ تلك العلوم التي سبق أن أبدع فيها علماء المسلمين. والواقع أن هذا القصور لا ينطبق على مدارس مكة المكرمة وحدها؛ ولكنه يظهر هنا بوضوح أشد. ففي الوقت الذي وجد في مدينة دمشق ثلاث مدارس للطب؛ لم يوجد في الفترة ذاتها في مكة المكرمة مدرسة واحدة للطب.

٢) **قلة عدد المدارس** : كان عدد المدارس التي ظهرت في مكة المكرمة حتى بداية القرن العاشر الهجري أقل من خمس عشر مدرسة. وإذا جاز للباحث أن يختار عدد المدارس ليتخذه معياراً يحكم به على التقدم التربوي؛ فإنه يجد أن مكانة مكة المكرمة التربوية ليست موازية لمكانة بعض المدن الإسلامية الكبرى. فالنعيمي المتوفى عام ٩٢٧هـ يذكر أنه كان في زمنه في مدينة دمشق ١٥٩ مدرسة: سبع منها لتدريس القرآن الكريم، وست عشرة مدرسة تدرس الحديث، وثلاث مدارس للقرآن الكريم والحديث الشريف معاً، وثلاث وستون مدرسة تدرس الفقه الشافعي، واثنتان وخمسون مدرسة تدرس الفقه الحنبلي، وأربع مدارس تدرس الفقه المالكي، وإحدى عشرة مدرسة تدرس الفقه الحنبلي، وثلاث مدارس للطب.[٦٩] ووجدت في زبيد في زمن بني رسول أكثر من عشرين مدرسة، منها : مدرسة القراء، ومدرسة الحديث، والمدرسة الشافعية، والمدرسة الحنفية.[٧٠]

٣) **أهمية مهنة التدريس** : كان التدريس مهنة رفيعة لا يتصدى لها إلا العلماء الأجلاء، وكانوا يتنافسون على التدريس في المدارس. فقد درس محمد بن أحمد العقيلي قاضي مكة المكرمة وخطيبها في المدرسة الأفضلية،

---

[٦٩] –النعيمي : **الدارس في تاريخ المدارس**، الجزء الثاني، ٨٢٨.

[٧٠] – الخزرجي : **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية** ، الجزء الأول،٣٤٨، الجزء الثاني،٢١٤.

ثم وشى به أحد منافسيه ــ وهو القاضي زكي الدين الخروبي ــ إلى ملك اليمن الأشرف ابن الملك الأفضل؛ فعزله عن التدريس.[٧١] وكان الملك المؤيد حاكم مصر يحضر درساً بالمدرسة الأفضلية.[٧٢] وهذا قد يشير إلى تدخل الحكام في تعيين المدرسين؛ بيد أن حضورهم تلك الدروس، ورفعة المكانة التي كان يحتلها من يقوم بالتدريس، من أبرز الشواهد على احترام المجتمع الإسلامي لمهنة التعليم.

٤) **سعة الاطلاع عند المدرسين** : كان العالم المسلم لا يقنع بأخذ العلم عن عالم واحد، أو من بلد واحد؛ بل يأخذه عن عدد من العلماء، ويرحل في سبيل العلم من بلد لآخر، في زمن لم تكن وسائل النقل ميسورة؛ مثلما هي عليه هذه الأيام. فالفاسي ــ وهو أحد مدرسي المدرسة الغياثية ــ أخذ عن علماء مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وفلسطين، ودمشق، ومصر.[٧٣] وله عدة مؤلفات، منها : **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** ، **وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**. وهذه الصفة ليست مقصورة على الفاسي وحده؛ بل تكاد تشمل عددا كبيرا من المدرسين. ومن يقرأ كتاب العقد الثمين الذي ترجم فيه المؤلف لمشاهير مكة المكرمة حتى عام ٨٣٢هـ يخرج بهذه النتيجة.

٥) **قلة عدد طلاب الفصل الواحد** : لم تكن الفصول الدراسية مزدحمة بالصورة التي هي عليه هذه الأيام. وقد سبق أن ذكر أن الملك الأفضل عين في مدرسته عشرة طلاب يدرسون بها؛ وهؤلاء لهم مدرس، ومعيد. وهذه

---

[٧١] – الفاسي : **العقد الثمين** ، الجزء الأول،٣٠١ – ٣٠٢ .

[٧٢] – **المصدر السابق**، ، الجزء الأول ، ٣٧٦.

[٧٣] – **المصدر السابق**، ، الجزء الأول ، ٣٣١.

الممارسة نابعة من قيم تربوية أصيلة تنظر إلى عملية التعليم على أنها عملية تفاعل بين الطلاب، والمدرس.

٦) **اهتمام المسلمين بفتح مدارس في مكة المكرمة** : من الملاحظ أن عددا كبيرا من المدارس التي ظهرت في مكة المكرمة أنشأها حكام مسلمون من خارج مكة المكرمة. ولعل هذا له أسباب عدة، منها أن المسلمين رغم انتمائهم لدول متعددة ظلوا يشعرون بانتمائهم إلى كيان واحد. فلا يحتاج المسلم الهندي ــ على سبيل المثال ــ إلى إجراء معاملات، أو حمل جواز سفر؛ إن أراد المجيء إلى مكة المكرمة، أو غيرها من المدن الإسلامية. وهذا هو العامل الذي سهل على العلماء المسلمين الرحلة في طلب العلم. أما العامل الثاني الذي أدى إلى اهتمام الحكام المسلمين بمكة لمكرمة فهو مكانة بيت الله الحرام في قلوب المسلمين جميعا.